مقدمـــــة

١- لماذا برجسون؟

فى إحدى البحوث وأنا طالب عن معنى الفلسفة أو الميتافيزيقا كما أذكر بالسنة الثالثة بقسم الفلسفة بجامعة القاهرة عام ١٩٥٥ مع المرحوم زكريا إبراهيم صدرته بهذا الإهداء "إلى من يتغير فيتحرك فينطلق فيبدع شيئاً جديداً". وما أن أطلع عليه فى خاتمة البحث حتى صاح "هذا برجسون". فعلمت من ذلك الوقت أننى بى شىء منه.

بعدها بعام فى ١٩٥٦ وهو عام تأميم قناة السويس غادرت إلى فرنسا للدراسة فى أكتوبر قبل العدوان الثلاثى بأسبوعين وكان أول ما اقتنيته أعمال برجسون واسبينوزا. وكنت أشتغل فرحاً وأنا أقرأ الفيلسوفين. ففّى منهما الكثير. الأول كفيلسوف حيوى، والثانى كناقد للكتاب المقدس. وقد أوفيت حقى وأديت واجبى بترجمة "رسالة فى اللاهوت والسياسة" لاسبينوزا إلى العربية عام ١٩٧٠ وهاأنذا أوفى بحقى وأؤدى واجبى الثقافى تجاه "برجسون".

وفى السنة الرابعة فى مادة علم النفس الصناعى التى كان يدرسها "جشطلتى" دار العلم كله حول مقاييس القدرات النفسية والعضلية لاختيار أفضل العمال لأفضل الأعمال. وكان للقياس النفسى العضلى أربعة شروط: المادة، الكم، التقسيم، الموضوعية، وثارت ثائرتى وأنا أسمع هذا القياس الكمى للظواهر النفسية الكيفية فى المجتمع الصناعى "المتقدم". ونقدت ذلك فى ورقة الإجابة على سؤال:ما هى شروط المقياس العلمى؟ وكانت النتيجة "مقبول" وليس جيد جداً. وقد صرح لى الأستاذ الجشطلتى ومؤسس علم النفس التكاملى أنه عرف

ورقتى "البرجسونية" من بين عشرات الأوراق[1].

وفى "علم الجمال" أيضاً فى السنة الرابعة كان السؤال: ما هى مواصفات رابطة العنق "الجميلة" إذا أردت شراءها؟ ونقدت علم الجمال الشيئى والقيم الاستهلاكية كدافع للجمال. ودافعت عن الموسيقى والشعر[2]. وفيما بعد عرفت إشكال المتكلمين فى المقدمات النظرية أيهما أفضل السمع أو البصر؟ وفضلت السمع. ومنذ عشر سنوات كتبت الفنون البصرية أم الفنون السمعية أيهما أقرب إلى الوجدان العربى[3].

وتعلمت برجسون على برجسونى على مدى عشر سنوات ومن الأوصياء على تنفيذ وصيته، وصديق ابنته جين، الخرساء، البكماء. عرفت برجسون من الداخل روحاً وفكراً، منهجاً وموضوعاً، حركة واتجاهاً، رؤية ومنظوراً. قرأته عدة مرات وأنا أستمع إلى محاضراته فيه. وكما حدث فى جامعة القاهرة مع زكريا إبراهيم، حدث أيضاً فى جامعة السربون مع جان جيتون الذى ظللت ملازماً له عشر سنوات، كل يوم أربعاء فى محاضرته العامة لشهادة تاريخ الفلسفة والفلسفة، وفى حلقة بحثه أيضاً نفس اليوم صباحاً لطلبة المسابقة (الأجرجاسيون) ثم فى محاضرته العامة المسائية لمحبى الفلسفة من الجمهور الباريسى.

أثيرت برجسونيتى الدفينة من خلال جان جيتون تلميذ برجسون المباشر

---

(١) "محاولة مبدئية لسيرة ذاتية، الدين والثورة فى مصر، ١٩٥٢-١٩٨١، جـ٦، الأصولية الإسلامية، ص٢٠٧-٢٩٢، وأيضاً الحرية والإبداع محاولة ثانية لسيرة ذاتية، هموم الفكر والوطن، جـ٢، الفكر العربى المعاصر، ص٦٠٩-٦٦٢.

(٢) من العقيدة إلى الثورة جـ١، المقدمات النظرية، ص٥١٤-٥٢٦.

(٣) الفنون البصرية أم السمعية، أيهما أقرب إلى الذوق العربى، حصار الزمن، جـ١، إشكالات ص٢٦٥-٢٧٠.

بالرغم من عدم الإشارة إليه فى "كتابات وأقوال" أو تبادل الرسائل معه كما حدث مع بعض الفلاسفة البرجسونيين مثل جاك شيفالييه وأدوار لوروا.

كُتب "برجسون" مرة واحدة كما كُتب النصان العربيان "تأويل الظاهريات" و"ظاهريات التأويل" أيضاً مرة واحدة. عشته من الداخل وقرأته من الخارج.

وإذا كان فشته فيلسوف المقاومة، وكان هوسرل فيلسوف الوعى أو القصدية، ونيشته فيلسوف القوة، وماكس شيلر فيلسوف الوجدان، وإقبال فيلسوف الذاتية، فماذا يكون برجسون؟ هو فيلسوف الحياة مثل فشته، وفيلسوف القوة مثل نيشته، وفيلسوف التعاطف مثل ماكس شيلر. إلا أنه بوجه أخص فيلسوف الحياة الباطنية أو الزمان أو الحدس أو الطاقة الروحية أو الحركة أو الطفرة والكمون أو الإبداع.

وقد حظى برجسون بترجمة أعماله الكاملة إلى العربية بفضل المرحوم سامى الدروبى من القطر السورى الشقيق، وممثل سوريا بالجامعة العربية[1]. وكان قد درس فى فرنسا أيضاً وأطلع عليه. وكان برجسون وفشته حاضرين فى أيديولوجية حزب البعث العربى الإشتراكى، برجسون من أجل الطاقة والحركة والحياة والتغير، وفشته من أجل القومية. ويمكن القول بأن أيديولوجية البعث العربى الاشتراكى هو مزيج من برجسون وفشته. ولما كنا قد كتبنا فيلسوف المقاومة "فشته" من قبل تحية إلى المقاومة الفلسطينية فى عصر الاستسلام والصلح والاعتراف من أجل تدعيم المقاومة، "الأنا تضع نفسها حين تقاوم" أو بلغة ديكارت "أنا أقاوم فأنا ذاك موجود"، وبقى أن يكتب برجسون فى عصر التقليد واللامبالاة واليأس والإحباط والسكون والعجز عن الحركة والضياع،

---

(١) وترجم كمال الحاج "رسالة فى المعطيات البديهية للوجدان"، ومحمود قاسم "الضحك".

فثقافة الغرب من علوم الوسائل وليست من علوم الغايات، من علوم العجم، تطويراً لعلوم العرب، من علوم الأوائل وليست من علوم الأواخر طبقاً لتمييز القدماء بين ثقافة الأنا وثقافة الآخر.

ولم ينل برجسون حظاً موفوراً فى الدراسات الفلسفية المعاصرة أو أصبح موضوعاً شائعاً ومتكرراً فى الرسائل الجامعية أسوة بغيره من فلاسفة المسلمين أو فلاسفة الغرب. صحيح هناك بعض الرسائل مثل "المذهب فى فلسفة برجسون"، وبعض الدراسات مثل "برجسون"، قام بها الرعيل الثانى من جيل الأساتذة المحدثين. ولم يستأنف الجيل الحالى ذلك وليس السبب فى ذلك عدم المعرفة الكافية باللغة الفرنسية فمؤلفات برجسون الكاملة منقولة إلى اللغة العربية والإنجليزية. وكثيراً ما يدرس الطلاب نصوص الفلاسفة الألمان والفرنسيين والأسبان والإيطاليين فى ترجماتها العربية[1]. السبب الأقرب هو عدم الاهتمام بفلسفة الحياة حتى فى هذا العصر الذى استكان فيه الناس، واستسلموا للعجز واليأس والإحباط. ففيه انتشرت الفلسفات العقلية والعلمية أثناء نهضة مصر الأولى فى القرن التاسع عشر فى دولة محمد على، وأثناء نهضة مصر الثانية فى عهدها الليبرالى فى النصف الأول من القرن العشرين أو فى عصرها القومى الاشتراكى فى الربع الثالث منه قبل أن تسود اللامبالاة، ويعم الموت فى الروح فى الربع الأخير منه.

٢- برجسون ومشروع "التراث والجديد".

التراث الإسلامى ليس مرحلة واحدة فى تاريخه، هى المرحلة القديمة، اليونانية الرومانية غرباً، والفارسية الهندية شرقاً، بل هى مراحل متتابعة. هو

---

(١) مراد وهبة: المذهب فى فلسفة برجسون. زكريا إبراهيم: برجسون

تراث متجدد فى كل مرة تلتقى فيها الحضارة الإسلامية بحضارات الشعوب الأخرى المجاورة وتحدث عمليات نقل من الحضارة السابقة إلى الحضارة اللاحقة. ولما كانت الحضارة الإسلامية فى طور جديد فى تعاملها مع الحضارة الغربية منذ أكثر من قرنين من الزمان فإن النقل والتعليق والشرح والتلخيص والعرض والتأليف والإبداع الخالص فى الفلسفة العربية المعاصرة استئناف للتراث الإسلامى القديم فى فترة جديدة. وكما ألف الكندى والفارابى فى أفلاطون وأرسطو، وكما شرح ابن رشد ولخص أرسطو ثلاث مرات، يمكن اعتبار ترجماتى وشروحى ومؤلفاتى فى الفلسفى العربية من هذا النوع.

وقد كُتب "برجسون" استعداداً لمحاولتى الرابعة "من الفناء إلى البقاء" لإعادة بناء علوم التصوف. فمن أكثر من برجسون حلل التجربة الصوفية. ووضع الأسس الميتافيزيقية للتصوف، وجعله أعلى من الفلسفة، وجعل الصوفى أعلى من الفيلسوف. وهو ما قاله حكماء المسلمين قديماً عن الصلة بين النبوة والفلسفة، دين النبى والفيلسوف. فكلاهما ينهلان من مصدر واحد العقل الفعال. وقالا حقيقية واحدة بأسلوبين مختلفين: التخيل عند النبى، والبرهان عند الفيلسوف. وفى نفس الوقت يصدر أيضاً "محمد إقبال "فيلسوف الذاتية" استعداداً أيضاً لمحاولة إعادة بناء علوم التصوف كما حاول إقبال نفسه. فمن من المفكرين الإسلاميين المحدثين أسس ميتافيزيقا التصوف مثل محمد إقبال فى "تجديد الفكر الدينى فى الإسلام". ومن ثم تتأسس محاولة إعادة بناء التصوف مرة فى الوافد، ومرة أخرى فى الموروث.

وهذا العمل "برجسون" هو أيضاً جزء من استئناف علم الاستغراب، بعد أن تم الإعلان عن البيان النظرى مع الخطة العامة للجبهة الثانية من مشروع

"التراث والتجديد"، "الموقف من التراث الغربى" من أجل التأليف فى المحطات الرئيسية فى مسار الوعى الأوروبى، ومنها هوسرل وبرجسون. وكنا قد أعددنا طبعة عربية هذا العام أيضاً من "تأويل الظاهريات الحالة الراهنة للمنهج الظاهرياتى وتطبيقه فى ظاهرة الدين" والذى كتب منذ ما يقرب أربعين عاماً، عام ١٩٦٦، واستعداداً للتأليف فى المحطات الأخرى هيجل والهيجلين، وباقى الهوسرليين مثل ماكس شيلر أو من شاركوا فى وضع فلسفة الحياة مثل نيشته ودلتاى وأورتيجا إى جاسيه أو الذين أبرزوا قيمة الشخص مثل مونييه.

مقدمة فى علم الاستغراب هو القلادة، وأعلامه، فشته، برجسون، هيجل، فيورياخ، شيلرماخر، شلنج، شتراوس، باور، ماركس الشاب، فى ذروة الوعى الأوروبى، وهوسرل، وشيلر، ونيتشه، ومونييه، وأورتيجا، الجواهر الكبرى المعلقة فيه .

وبرجسون وثيق الصلة بهوسرل. قالا نفس الشىء بلغتين مختلفتين. وثارا ضد نفس الخطأ، الصورية والتجريد من ناحية والمادية والنزعة الطبيعية من ناحية أخرى من أجل العودة إلى عالم الحياة والشعور الداخلى بالزمان عند هوسرل والديمومة عند برجسون. قالها هوسرل بالطريقة الألمانية وبلغة الظاهريات المعقدة والأسلوب التأملى المعروف فى المثالية الترنسندنتالية، وعبّر عنها برجسون بالطريقة الفرنسية، وبلغة تحليل الخبرات الحية مثل مين دى بران فى "تحليل الجهد"، ورافيسون فى تحليل "العادة" والأسلوب البسيط الواضح، السهل الممتنع المعروف منذ ديكارت حيث يصعب التفرقة بين الأدب والفلسفة، بين الأسلوب والتفكير، بين التعبير والتأمل. مع أن كلا منهما لم يعرف الآخر، عرف هوسرل برجسون عندما قرأ عن فلسفته لأول مرة رسالة

تلميذه رومان انجاردن البولندى وتحت إشرافه "الحدس والعقل عند برجسون" وصاح "هذا هو تقريباً ما أريد، وكأننى برجسون"(١).

وبطبيعة الحال ليس الهدف هو عرض المذاهب والتيارات والاتجاهات الفلسفية الغربية ترويجاً لها وعرض الثقافة الوافدة لمزاحمة الثقافة الموروثة أو كبديل عنها. يفعل المتغربون ذلك. وتشجعه المراكز الثقافية وبرامج الترجمة فى السفارات الأجنبية، ترويجاً لثقافاتها.وقد غلب العرض على دراساتنا الفلسفية ورسائلنا الجامعية المعاصرة نظراً للخلط بين المعلومات والعلم، ظناً من الباحث أن نقل المعلومات هو العلم. وقد يرجع السبب فى ذلك أيضاً إلى دعوى الحياد والموضوعية وكأن الفكر يكرر ويعاد، من حضارة إلى حضارة أخرى. مع أن الفكر قراءة وتأويل وإعادة إنتاج للنص المقروء. وقد يكون السبب الرئيسى هو غياب الوعى الحضارى والاكتفاء بدور المتفرج دون أخذ موقف من الوافد بإعادة قراءته أو من الموروث بتطويره وتحديثه.

أتبع فى "برجسون" منهج العرض الذى يجمع بين المادة العلمية وقراءتها، وبين أفكار برجسون وتطويرها. كان "العرض" أحد الأشكال الأدبية فى تراثنا الفلسفى القديم. وتراوح بين العرض النسقى والعرض الجزئى، العرض العلمى والعرض الشعبى(٢).

وطريقة العرض هى عرض الأعمال واحداً تلو الآخر. فكل عمل موضوع. ومجموع الأعمال هى مجموع الموضوعات التى تكون النسق الفلسفى لأصحاب المذاهب أو الموقف الفلسفى لأصحاب المواقف دون المذاهب.

---

(١) R. Ingarden, "Das ist fast so... Als ob Ich Bergson wäre". Cahiers de Royommont

(٢) "من النقل إلى الإبداع"، مجـ٢، جـ١.

وترتب الأعمال ترتيباً زمانياً لمعرفة تطور المذهب من مرحلة إلى أخرى أو كيفية بنائه موضوعاً موضوعاً حتى يكتمل البناء. وبهذه الطريقة يمكن معرفة فكر الفيلسوف تطوراً وبنية[1].

وقد استعمل منهج تحليل المضمون لأسماء الأعلام لمعرفة نشأة البرجسونية من بين تيارات الفلسفة الغربية المعاصرة وشقها تياراً ثالثاً فى فلسفة الحيـــاة أو الوعى بين الصورية والمادية، بين العقلانية والوضعية، كما نشأت الظاهريـــات عند هوسرل. وقد أثبت منهج تحليل المضمون جدارته من قبل فى "من النقل إلى الإبداع" لمعرفة مسار النص الفلسفى العربى القديم.

واستعمل منهج قراءة النص والتعامل مع مؤلفات برجسون تعاملاً مباشـــراً دون توسط الدراسات الثانوية. فيلسوف يقرأ فيلسوفاً، ومفكر يحاور مـــع فكـــراً وحضارة تقرأ حضارة.

---

(١) وهو المنهج الذى اتبعناه فى عملنا السابق "فشته فيلسوف المقاومة".